محاضرات في مادة: **قراءة نقدية للمصادر والمراجع**

لفائدة طلبة السنة الأولى (**ماستر " أدب عربي قديم"**)

عنوان المحاضرة الثانية عشرة: **لغة الشعر**

أ. بلقاسم دكدوك

" اللغة ـ في النص- حبلى بدلالات، تتمخض قراءتها عن تداخل في العلاقات، وتحولات في المعاني، وكأنها مقاربة تخطو برهافة على شفا المعنى، حيث يتوافق الإعتام والنور، ويترافق الغموض والوضوح". رجاء عيد

عن النص، ولغة النص:

ليس النص (النص الشعري)، يقينا إخباريا أو تخاطبا أحاديا، فسطح النص- شكله اللغوي- لا يمثل سوى مظهر له، كما إن سطح البحر ليس هو البحر. إن ما يتشاكل من دالات تترافق وتتضام، ومدلولات تتوالى وتتابع، لها جميعها، وحدة نسقية تتجلى في فاعلية السياق، وجدلية الأنساق، حيث تحرض جميعها على اكتشاف النص القابع داخل النص.

إن تتبع العلاقات-في النص- تكون بين عدة مستويات، منها: المعجم، التركيب، الأصوات، ومدى تلاحم كل عنصر بسواه، فوحدات النسق تتكون -بالضرورة- من اللغة. ومن ثَمَّ يلزم تحليل وحدات النسق التعبيري في نظامه النصي، فلكل نص موضوعه ومدلوله، ويكون - كذلك-لكل شريحة من مكوناته موضوع أيضا، ومن هنا فإن تفكيك النص يتيح الإحاطة بجزئياته.

إن قراءة النص، إعادة إنتاج له، كما إنها خلق تصور كلي يعيد تفكيك الدال والمدلول، وذلك يعني حتمية التأويل، وتجاوز السطح اللغوي للكلمات، فعندما تتناسق المفردات في دائرة الحلقة الكلامية، من حيث تقاربها الدلالي، فإن العمل التالي هو الانتقاء من جملة ممكنات مختزنة، بما يتناسب مع التناسق، وفي النص نجد أن مبدأ التساوي هو الذي يبرر مبدأ الانتقاء والتناسق، فالحذوفات تتقابل مع مثيلاتها والترادفات تتوازى مع ما يشاكلها، والحضور يتناظر مع الغياب.

التحويل والتوازي في النص الشعري:

إن الأداتين-التحويل والتوازي- يكمل أحدهما الآخر: فالأولى، تشير إلى اختيار لغوي، خارج نظام الاختيارات المسموح بها، ويمكن التفريق بين ثلاثة أنواع منها:

- تحول داخلي: وهو خروج عن نسق فرضه النص نفسه.

- تحول خارجي: وهو خروج عن نمط خارج النص.

- تحول محدد: وهو خروج عن قاعدة لغوية أو تقليد أدبي.

وإذا كان التوازي: مجموعة منتظمة من التساويات أو الأضداد، التي تتبع في الأشكال اللغوية العادية، فإن التحول عبارة عن اختيار الشاعر خارج النظام المسموح به.

ومن ثَمَّ فإن التوازي هو العكس، حيث يقوم الشاعر بعمل نفس الاختيارات أو اختيارات متشابهة في موقع يميل فيه التدفق العادي للغة إلى التنوع في الاختيار.

إن التحولات والتوازيات، يمكن أن تحدث في كل من المستويات المختلفة في النسق اللغوي: الصوتيات والقواعد/ النحو، وعلم دلالات الألفاظ، ومن ثَمَّ يمكن ملاحظة أربع أدوات: (تحولات داخلية أو خارجية أو محددة، أو إحصائية مع التوازي).

إن الصفة الأساسية في الوظيفة الشعرية، هي أن الاستخدام الشعري للغة، يقدم مبدأ التساوي من محور الاختيار إلى محور الانتقاء، وهذا يعني أنه، على الرغم من أننا نتوقع أن نجد أنواعا مختلفة، من العوامل التي تم اختيارها في نقاط مختلفة في تركيب الجمل، فإن اللغة الشعرية تظهر مجموعات متكررة من نفس أنواع العوامل، على الرغم من أن هذه الظاهرة التي تعرف بالتوازي، تحدث في اللغة اليومية أيضا، إذ إنها تأخذ أعلى درجة في الأدب من حيث تنظيم العمل الأدبي، ومن حيث توزيعها على الجوانب الأخرى.

إن النسق الجيد يترابط فيه كل عنصر بسواه، في علاقة دلالية حتى تتولد استمرارية ترابطية. إن ذلك التراتب يشكل بدءا من البنية الصغيرة ووصولا إلى البنية الكبرى، أي النسق الكلي للنص. فقد يكون عنوان القصيدة -مثلا- ركيزة البنية الكبرى، وقد تتشكل البنية الكبرى من خلال المتتاليات المترابطة للبنية الصغرى، وفي جميع الأحوال، فإن البنية الكبرى هي مجموعة دلالات البنيات الصغرى.

وهنا تختلف قيمة نص عن سواه، فقد تتوالى بنيات صغرى لها أهمية ثانوية ويمكن حذفها من خلال عنصري الانتقاء والاختيار. وربما تكون في نص آخر ضرورية إذا كانت تشكل، في تواليها، مغزى وظيفيا يضرب في اتجاه البنية الكبرى، ومن ثَمَّ لا بد أن تتناسق في " النص" وأن يتوافر لتلك الأنساق تراتب محدد تنغلق عليه ليتم من تواليها وتتابعها -داخل هذا النسق المعين- ترتيب المعطى العام، ومن ثَمَّ لا بد أن تتناسق في النص متواليات لها انتظام على مستوى العلائق التي تربط بينها، والمثال التقريبي الذي يذكر في هذا المجال ما يقارب الجمل التالية:

1- ذهبت إلى الجامعة، وألقيت محاضرة.

2- ألقيت محاضرة، وذهبت إلى الجامعة.

3- ذهبت إلى الجامعة، الصيف يأتي بعد الربيع.

وواضح أن فقدان التراتب في الثانية، وانبتاته (انقطاعه) في الثالثه، يؤدي إلى فقدان التماسك.

وقد أشار النقاد القدماء إلى مثل ذلك‘ في تعليقهم على بيت أبي تمام"

لا والذي هو عالم أن النّوى صبِر وأن أبا الحسين كريم

فنحن نرى ألا علاقة بين كرم أبي الحسين، ومرارة النوى.

إن استجلاء علاقة كلمات النص، يكون بتتبع عناصره اللغوية، بحسبانها التكوين، والمكوّن، لتلك العلاقات التي تتشاكل في أنساق دلالية، وتدور في أنساق علاقة منتظمة أو صلات تنظيمية.

ولما كانت اللغة جملة أنساق وأنظمة، فإن مدلولها الإشاري يزيح عنها صلابة كتلها اللفظية، ويتمكن من بث دوال متعددة، مع ملاحظة أن قيمة " الدليل " تتأطر في جملة التجاوزات له، وتنوع علاقاتها، فمن بين تخالفها أو تعارضها أو في تقاربها أو تغايرها يتشاكل في إطارها الدال والمدلول.

إن نسق النص يعمل على تحرير الكلمات من قوالبها الثابتة، وإعادة تنسيقها في تركيب مغاير، فالكلمة تتحدد بموضعها في السياق، وليس بما تشير إليه. إن المرجعية للكلمة في إشارتها اللغوية، تضمحل وتذوب في بنية السياقات المتضامة فيها.

لا تقدم الكلمات سوى تحديد ضئيل لمعناها، وهي في نسق النص تتبدل دلالتها، وتتلاشى في سياق لتكتسب تحولا آخر، وقد تتماهى في أكثر من معنى. كما إن القصيدة تعيد للكلمات مغامرتها تجاه المعنى، وربما في قصيدة أخرى للشاعر نفسه، تكتسب الكلمات نفسها تشكلا دلاليا آخر.

ليست الكلمة -أو الكلمات- ذات شعرية في ذاتها، وإنما تكتسب شعريتها من خلال النسق اللغوي،ومن ثَمَّ يكون التعبير عن الشيء هو الحد الفاصل بين شعريته ولا شعريته، فاللغة النصية، هي نتاج النص، وليس النص هو نتاج اللغة.

لا يعني تشكل تصور كلي للنص، التقليل من بنية النص اللغوية القارة في كلماته وجمله وعباراته، فما تعنيه بهذا التصور الذهني، أنه يتجاوز جملة سطحه اللغوي، حيث تكون وحداته الدلالية أشمل من وحداته النحوية واللغوية.

إن الكلمة في النص، تكون قيمتها في كونه "كلمة" غائية، وليست استبدالا أو بديلا أو إنابة، عن مسماها.لذلك فإن الإحالة الخارجية التي تتبناها اللغة الشعرية، تكون مادتها اللغوية "صوتا ومعنى" محاور استبدالية، تتوظف فيها المعادلات الصوتية والإيقاعية وسواهما.

ينبغي التنبيه إلى إن النص ليس فقط، مجرد نسق لغوي، يعكف على تنظيم خاص لتركيب الجمل وعلاقة الكلمات،ولعله - من المجازفة أيضا-أن يقتنع محلل النسق النصي، بمادة النص اللغوية، والتي ستتحول إلى عمل آلي، ينزوي المحلل لفحصه، غاضّا البصر عن قيمة " النص" من حيث أثرها وتأثيرها وغاياتها.لأن التوقف عند حدود النسق، لا يمكن أن يغطي "خارطة النص"، والتي تتجاوز النسق اللغوي.فإذا كان للنص هويته القارة في نسيجه اللغوي، فهو -أيضا- لا ينكفئ على جسده اللغوي.

إن للنص علاقة بخارجه، لأن وحداته الدلالية، في سياقها الثقافي، لا يمكن عزلها عن تلك التفاعلات المتعددة في أبعادها المختلفة.

يأبى النص -كذلك- أحادية التحليل و"علمانية" التفسير، فهو روح إنساني، وليس جسدا لغويا فقط، لذلك فإن إحصاء ما يبدو على جسد النص، والعكوف على تحليله، يظل منفصلا عن "روح" الإبداع المتلبسة بذلك الجسد، وذلك الروح تظل جوهرا له، تعيّنه الخاص به. فالشعر فن إنساني، ونشاط روحي، ينغرس في كنه الذات الإنسانية، وهي ذاتٌ شديدة التعقيد، كثيفة التركيب، مما يعني أن الإبداع -شعرا أم نثرا-، لا يمكن أن نستكشف ماهيته، بمجرد إحصاءات مفترضة، من العلوم الرياضية. فالنص له المعطى الجمالي، الذي لا بد من تفحّصه، وتحليل طاقاته الإبداعية، ومن ثَمَّ، فلا معنى للفصل بين هالة أسلوبية النص الخارجية، وبين لبّ الدلالات المطروحة من خلال الأداء، ولا معنى -أيضا- لافتراض فكرة قبلية تسبق اللغة، ولا محلّ للفصل بين الفكرة وما يغلفها من تعبير، فاللغة مجموعة من السبل التعبيرية، التي تتزامن مع الفكرة أو الأفكار.

إشكالية النص المكتوب والنص المقروء:

من المتفق عليه، أن تقديم قصيدة ما، بطريقة مكتوبة، إنما لا يعبّر عن تلك القصيدة، إلا بصورة جزئية، من ناحية أنها تعبير كلامي، أمّا إن قرئ "الشعر" فإن سؤالا ملحّا يعلن عن نفسه: قراءة مَن تلك؟، وأيّ قراءة هي الصادقة؟. وقد تبدو هذه الأسئلة من الأمثلة المضللة، مع إنه لا يمكن أن ننكر، أن فاعلية "النص" تكتسب حرارة خاصة عن طريق الأداء، ولا جدال في إنه يمكن أن تؤدى قصيدة بطرق مختلفة، على لسان عدة مؤدين، حيث نجد أن كلّا منهم يضغط على وجه من أوجه القصيدة. فهذا يهتم بالإيقاع النّغمي، وذاك يهتم بالأجزاء السيمونطيقية، وثالث يهتم، أو يركز على التركيبات الشعرية.

ومهما يكن من جدل، حول هذه النقطة، وبصرف النظر عن قارئ النص، فسوف تظل للنص بنيته غير المتغيرة، وله -أيضا- خواصه السمعية التي يكتمل بها.

المرجع:

- رجاء عيد، " القول الشعري -منظورات معاصرة-"، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، دت.